أسئلة موجهة للعلماء والدعاة

١- ساوى الإسلام بين كل المسلمين، فتراجعت النعرات القبلية، حتى اندثرت في عصوره الأولى، فهل يُعَدُّ ظهور هذه النعرات مجددًا دليلًا على قلة الفهم لتعاليم الإسلام؟

٢- ما هي الأسباب التي تُعيد ظهور مثل هذه النعرات الجاهلية؟ وما يصاحبها من ممارسات تتنافى وتعاليم الإسلام، مثل: عدم تزويج بنات قبيلة لأبناء قبيلة أخرى، وهكذا؟

٣- ما هي مسؤولية العلماء والدعاة في التصدي لمثل هذه النعرات، والآليات القادرة على تحقيق هذا الهدف؟

س١/ ساوى الإسلام بين كل المسلمين، فتراجعت النعرات القبلية، حتى اندثرت في عصوره الأولى، فهل يُعَدُّ ظهور هذه النعرات مجددًا دليلًا على قلة الفهم لتعاليم الإسلام؟

ج١/ إن الإسلام دين المساواة، دين العدالة، دين لا يفضل فيه أحد على آخر إلا بالعمل الصالح والتقوى، دين لا يميّز جنسًا من الأجناس، وطبقة من الطبقات، أو سلالة من السلالات، دين يدعو إلى المساواة بين الأفراد، وقد أرسل المصطفى ﷺ إلى الناس جميعًا من غير تفرقة بينهم، قال جَلَّ شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقد روى مسلم في صحيحه، أن أبا ذر – رضي الله عنه – قال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمُّه أعجمية، فعيَّرتُهُ بأُمِّه، فشكاني إلى النبي ﷺ فلقيت النبي ﷺ فقال: يا أبا ذر! "إنك امرؤ فيك جاهلية". (صحيح مسلم ٢/ ١٢٨٢)، وقد نادى الإسلام بحق المساواة بين الناس! لأنهم مخلوقون من أصل واحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] وقال المصطفى ﷺ "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها". (صحيح البخاري٤/١٥١)، وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة حدثني

من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى" (مسند الإمام أحمد ٥/٤١١)، وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية: "دعوها فإنها منتنة" (صحيح البخاري ٤٦٢٢)، فمن منطلق المساواة بين الناس انتشر الإسلام، حتى وصل إلى أصقاع المعمورة، وهذه النعرات الجاهلية من التداعي، والتباهي، سواء كانت قبلية، أم إقليمية، هناك من يؤجج نارها، وهم ضعفاء الإيمان، من المسلمين الذين لا يزالون يعيشون تحت ربقة التنادي، والمفاخرة بأمجاد الماضي؛ لذلك حذرنا الإسلام منهم، وعدم الاستماع إليهم؛ لما يشكله ذلك من التناحر، والتفادي، والتفريق في الصف الإسلامي، وبالتالي يؤدي ذلك إلى القطيعة.

س٢/ ما الأسباب التي تُعيد ظهور مثل هذه النعرات الجاهلية، وما يصاحبها من ممارسات؟

ج٢/ مما لا شكَّ فيه أن هناك من الناس من ينتمي إلى الإسلام، ويعتبره دينه، غير أن الإسلام منه براء، كما يحصل الآن في بعض الدول من ينادي بالقومية، والفرعونية، والفرعنة، والآشورية، والفارسية، وهذا مما يمزق أوصال الإسلام، ويجعله دين قائم على التفرقة، والعنصرية، وأسباب عودة مثل هذه النعرات كثيرة، لعل من أبرزها:

١- حبُّ التفاخر والتباهي بالانتماء إلى القبيلة الفلانية، مما يكسبه بُعدًا عن الدين.

٢- عمل أعداء الإسلام على إيقاظ هذه النعرات، وإحياء القوميات؛ لتفكيك وحدة المسلمين، وتقويض بنائهم.

٣- ما تثيره المجالس القائمة على القبلية من زهو، قد لا يصل إلى مرتبة الزهو والفخر، بالانتماء إلى الإسلام.

٤- ضعف الوازع الديني لدى البعض، ممن يثير مثل هذه النعرات الجاهلية، وعدم الفهم لروح الدين، وإن الدين هو السلوك الحسن، والخلق القويم؛ عملًا بقوله ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وبالتالي قد يؤدي ذلك إلى تَمَزُّق أواصر الأخوة الإيمانية، التي نادى الإسلام بها بقوله: ﴿إِنَّمَا المؤمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، كما تقرر فعله ﷺ: ﴿وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا﴾ (صحيح البخاري: ٥٧٤٨)، فالأخوة الإنسانية والأخوة في الدين يعبر عنها بلفظة "إِخْوَان" وآخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان ذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين.

إننا في عاصرنا الحاضر نلمس تفريقًا بين الزملاء في الدائرة الواحدة مبنيًا على أساس المنطقة أو الإقليم، ومثل هذا التفريق يمتد ليشمل المعاهد والجامعات، مما يفقدها الرسالة التي أُنشئت من أجلها، ويخلق بين أبنائها العداوة والبغضاء.

س٣/ المسؤولية جسيمة وكبيرة على العلماء والدعاة، في بيان عظم الأخوة بين المسلمين، وأن الله ساوى بينهم من غير تفريق، ولعظم هذه الأهمية نلحظ وقوفهم في الصلاة أمام ربهم، من غير تمييز بينهم، ولبسهم غير المخيط في الحج بلون واحد للرجال، من غير مفاضلة فيما بينهم، ولابد من وقوف العلماء والدعاة سدًّا منيعًا أمام هذه النعرات المقيتة، وما تسببه من تفريق، وتكتل بين الناس أحزابًا وجماعات، كذلك ما تشكله من تحقيق مآرب أعداء الإسلام والمسلمين؛ لكيلا يكون لهم شوكة وقوة، ولذا فإن التصدي لمثل ذلك ينبغي علاجه عن طريق التالي:

١- عن طريق المساجد في خطبة الجمعة، وهي ملتقى أسبوعي، يلتقي فيه الخطيب بالمصلين، ولتكن الخطبة محاضرة موجهة لجسر الهوة، بين النعرات التي انتقلت من العصبية القبلية؛ لتصبح عصبية إقليمية، أو بلدية، أو قطرية.

٢- عبر وسائل الإعلام المسموعة، والمقروءة، والمرئية.

٣- الزيارات التي يقوم بها العلماء والدعاة للمجالس وقصور الأفراح.

٤- عبر مطويات تُوزَّع بين الناس، يبين فيها أثر هذه النعرات، في خلْقِ جوٍّ من التشـــاحن والبغضاء، والإسلام ضد ذلك، فهو دين المحبة والمساواة، وكذلك إصدار الصحف والمجلات الدعوية، التي تثقِّف الناس، وتوضـــح لهم أمور دينهم، وتغرس فيهم التســـامح، والتآخي والتآلف، والله الهادي إلى سواء الصراط.

ويحسن بنا في هذا المقام أن نورد ما ذكره العالم المفسِّر محمد الطاهر بن عاشور – رحمه الله – في تفسيره القيم (تفسير التحرير والتنوير) عند معرض تفسيره، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـــعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]: والتعارف يحصـــل طبقة بعد طبقة متدرجًا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشـــيرة متعارفون من عائلات؛ إذ لا يخلون عن انتســـاب، ومصـــاهرة، وهكذا تتعارف العشـــائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والقبائل مع الشـــعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها.

فكان هذا التقســـيم الذي ألهمهم الله إياه نظامًا محكمًا؛ لربط أواصـــرهم، دون مشـــقة، ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار، يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة، أو يعم الناس كلهم، وما انتشـــرت الحضارات بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم.

وقد جبر الله صـــدع العرب بالإســـلام، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران، آية ١٠٣]، فردَّهم إلى الفكرة السليمة.

وأمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يصلحوا بين الطوائف المتقاتلة، ونهاهم عما يثلم الأخوة، وما يَغِين على نورها في نفوسهم، من السخرية، واللمز، والتنابز، والظن السيء والتجسس والغيبة، وذَكَّرهم بأصل الأخوة في الأنساب، التي أكدتها أخوة الإسلام، ووحدة الاعتقاد؛ ليكون ذلك التذكير عونًا على تبصرهم في حالهم، ولما كانت السُّخرية، واللمز، والتنابز، مما يحمل عليه التنافس بين الأفراد، والقبائل، جمع الله ذلك كله في هذه الموعظة الحكيمة، التي تدل على النداء عليهم، بأنهم عمدوا إلى هذا التشعيب، الذي وضعته الحكمة الإلهية، فاستعملوه في فاسد لوازمه، وأهملوا صالح ما جُعِلَ له بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: فإن تنافستم في التقوى كما قال تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [سورة المطففين، آية ٢٦].

والخبر في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني؛ ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض كناية بمرتبتين.

والمعنى المقصود من ذلك هو مضمون جملة: ﴿إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فتلك الجملة تتنزل من جملة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ منزلة المقصد من المقدمة والنتيجة من القياس، ولذلك فصلت؛ لأنها بمنزلة البيان.

وأما جملة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فهي معترضة بين الجملتين الأخيرتين.

والمقصود من اعتراضها: إدماج تأديب آخر من واجب بثِّ التعارف، والتواصل بين القبائل، والأمم، وأن ذلك مراد الله منهم.

ومن معنى الآية ما خطب به رسول الله ﷺ في حجة الوداع إذ قال: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وأن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى" (مسند الإمام أحمد ٥/٤١١).

ومن نمط نظم الآية وتبيينها، ما رواه الترمذي في تفسير هذه الآية قول النبي ﷺ : "إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها، لا لآباء الناس، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب". وفي رواية: "أن ذلك مما خطب به يوم فتح مكة" (عُبِّيَّةَ، بضم العين المهملة وبكسرها، وبتشديد الموحدة المكسورة، ثم تشديد المثناة التحتية: الكبر والفخر. ووزنهما على لغة ضم الفاء فُعِّوَّلة، وعلى لغة الكسر الفاء فِعِّلِّية، وهي إما مشتقة من التعبية، فتضعيف الباء لمجرد الإلحاق، مثل نضّ الثوب، بمعنى نضى أو مشتقة من عباب الماء، فالتضعيف في الباء أصلي).

وجملة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا، وإنما أُخِّرَت في النظم عن جملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾؛ لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه، وتتنزل منها منزلة المقدمة؛ لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة في أب واحد، وأم واحدة، كان الشأن أن لا يفضُل بعضهم بعضًا إلا بالكمال النفساني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم، والذي جعل التقوى وسيلته، ولذلك ناط التفاضل في الكرم بـ "عِندَ اللهِ" إذًا لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به.

والمراد بالأكرم: الأنفس والأشرف، والأتقى: الأفضل في التقوى، وهو اسم تفضيل، صيغ من (اتقى) على غير قياس.

وجملة: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تعليل لمضمون: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما كان أكرمكم أتقاكم؛ لأن الله عليم بالكرامة الحق، وأنتم جعلتم المكارم فيما دون ذلك من البطش، وإفناء الأموال في غير وجه، وغير ذلك من الكرامة التي هي التقوى.

﴿خَبِيرٌ﴾ بمقدار حظوظ الناس من التقوى، فهي عنده حظوظ الكرامة، فلذلك الأكرم هو الأتقى، وهذا كله كقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [سورة النجم، آية ٣٢]، أي: هو أعلم بمراتبكم في التقوى، أي: التي هي التزكية الحق. ومن هذا الباب قوله: ﴿اللهُ أَعلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام، آية ١٢٤].

علم أن قوله: ﴿إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى، مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس، مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والعراقة في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم، وفي الفضائل، وفي العائلات، وكذلك بحسب ما خلَّده التاريخ الصادق للأمم والأفراد، فما يترك آثارًا لأفرادها وخلالًا في سلائلها، قال النبي ﷺ: "الناس معادن، كمعادن الذهب، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقِهوا". أخرجه البخاري (٣٥١٠)، ومسلم (٢٥٢٦).

فإن في خلق الأبناء آثارًا من طباع الآباء الأدنَيْن، أو الأعَلين، تكون مهيئة نفوسهم للكامل أو ضدَّه، كما أن للتهذيب والتربية آثارًا جمة، في تكميل النفوس، أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة، وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال، والذكاء الحقيقي، الذي تخططه التقوى.

وجملة: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تذييل، وهو كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم، وما يريدون من التقوى بأن الله يعلم ما في نفوسهم، ويحاسبهم عليه. (تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٥/ ٢٦٢).